الأخلاق عند أفلاطون

بقلم الاستاذ يوسف كرم

مدرس الفلسفة بالجامعة المصرية

---

١ — القانون الخلقي والطبيعة

١ — لما كان أفلاطون قد ميز بين العقل والحس والنفس والجسم[1]، فقد ميز في الأخلاق بين اللذة والألم من جهة، والخير والشر من جهة أخرى.

وأعلن الحرب على أصحاب اللذة من السوفسطائيين وتلاميذهم، ونقد مذهبهم من جميع جهاته، وأقام مذهبه الخاص: فكان أول مذهب جامع عرّف للانسان قدره وبصّره بغايته وبالوسائل إليها من طريق العقل الصرف.

كان هؤلاء السوفسطائيون يعلمون البيان وأساليب الغلبة في المحاكم والمجالس الشعبية، لا يقصدون إلا إلى هذه الغلبة من غير نظر إلى الحق ولا اكتراث للعدل، فاصطنعوا نظرية تخلي الآخذ بها من حكم الضمير، وتطلق لدهائه العنان في سبيل شهواته. وتتلخص هذه النظرية في معارضة القانون بالطبيعة، وقد عرضها أفلاطون في أقوى صورها وأبعد نتائجها[2]، ثم فندها تفنيداً. قالوا إن القانون الذي يخشاه الناس إنما هو من وضع الناس لا من وضع الطبيعة، بل إن الطبيعة تعارضه وتأباه؛ فبحسب الطبيعة: الأمر الأقبح هو الأخسر، والأخسر تحمل الظلم؛ وبحسب القانون: ارتكاب الظلم هو الأخسر الأقبح. ولقد نشأ هذا التباين من أن القانون سنه الضعفاء والسواد الأعظم بالإضافة إلى أنفسهم، وابتغاء مصلحتهم الخاصة فرموا إلى تخويف الأقوياء وصدهم عن التفوق عليهم، وذهبوا إلى أن كل تفوق قبيح ظالم، وأن الظلم يقوم بالذات في إرادة التسامي على الآخرين. ولكن الطبيعة تقدم الدليل على أن العدالة الصحيحة تقضي بأن يتفوق الأحسن الأقدر، فترينا أن هذا هو الواقع في كل موطن: في الحيوان والانسان، في المدن والأسر، وأن علامة العدالة سيادة القوي على الضعيف، وإذعان الضعيف لهذه السيادة.

الكل يطلب السعادة وهل يستطيع أن يعيش سعيداً من يخضع لأي شيء كان قانوناً

---

(١) راجع مقالاتنا عن أفلاطون في أجزاء «المعرفة»: الثاني والثالث والرابع من سنتها الحالية

(٢) انظر محاورة غورجياس والمقالات الأولى والثانية والثالثة والتاسعة من الجمهورية

أم إنساناً ؟ إلا أن العدالة والفضيلة والسعادة — على حسب الطبيعة — : أن يتعهد الانسان في نفسه أقوى الشهوات ثم يستخدم ذكاءه وشجاعته لإرضائها مهما تبلغ من القوة مع تظاهره بالصلاح لإسكات العامة والانتفاع بحسن الصيت . ولا يتسنى هذا لغير الرجل القوى [1] ؛ لذلك نرى العامة تعنف الذين تعجز عن تقليدهم ، لتخفى بهذا التعنيف ضعفها وخجلها منه ، وتعلن أن الإسراف عيب ، محاولة أن تستعبد من ميزته الطبيعة من الرجال ، وتشيد بالعفة لقصورها عن إرضاء شهواتها الإرضاء التام ، وبالعدالة لجبنها وقعودها عن عظائم الأمور ، ولو صح ما تقول من أن السعادة في الخلو من الحاجات والرغائب : لوجب أن تدعو الأحجار والأموات سعداء .

ب — هذه دعاوى السوفطائيين ، فلنسألهم أولا : أليس يتفق مع الطبيعة أن الكثرة أقدر من الفرد ؟ فإن كانت الكثرة هي التي فرضت القوانين : فهي الأحسن من حيث إنها الأقدر وقوانينها حسنة حسب الطبيعة لأنها قوانين الأقدر : وإن كانت ترى أن العدالة تقوم في المساواة ، وأن الظلم أقبح من الانظلام ، فرأيها مطابق للطبيعة ، وإذن فلا تعارض بين الطبيعة والقانون .

ولنسألهم ثانياً : من هو الأحسن الأقدر ، الذي يتمدحون به ؟ وهل هاتان الصفتان متلازمتان ، أم يمكن أن يكون إنسان حسناً مع كونه ضعيفاً ، وأن يكون إنسان قوياً رديئاً معاً ؟ مهما تقلب المسألة فلا محيص من التسليم بأن الأحسن هو الأحكم في عمله الخاص — أياً كان هذا العمل — وأن الحكيم — بالإجمال — الملتزم جادة القصد والاعتدال ؛ وفي السياسة بالخصوص : من يحقق الاعتدال في نفسه ويضبط شهواته ، قبل أن يحكم الآخرين وإلا ساءت حاله وحالهم جميعاً . ولنتصور رجلهم الأقوى هذا الذي يقيمونه مثلا أعلى — وقد بلغ إلى قمة السلطان — فصار طاغية سكيراً ، متهتكا مغضاباً : لا يردعه وازع من ضميره ، ولا خوف من الناس ، ولا تشتهي نفسه حتى تنال من اللذات أصنافاً وألواناً ، هل هو سعيد ؟ كلا ! بل إن حياته مخيفة تعسة ؛ فإن جزء النفس الذي تقوم فيه الشهوات لا يعرف القصد ، ولكنه يميل بطبعه إلى الإسراف . ولما كان الاشتهاء ألماً من الحرمان ، كان إنماء الشهوات لأجل إرضائها عبارة عن تعهد آلام في النفس لا تهدأ ؛ وكانت حياة الشهوة موتاً متكرراً : مثلها مثل البرميل المثقوب نصب فيه ، فلا يمتلىء ، أو مثل الأجرب لا يفتأ يحس حاجته لحك جلده ، فيحك بقوة فتزيد حاجته إليه ويقضي حياته في هذا العذاب ، أو مثل مدينة رعاعها هائجة مائجة ، أو مثل مسخ متعدد الرءوس ، وسبع جائع تمزق الشهوات نفسه وتتغذى بلحمه ودمه ، وهؤلاء تلك فكل منها بعد أن ارتمى بين أيديها عبداً

---

(١) تكاد تقول « الانسان الأعلى » في (نيتشه) — هذا السوفطائي الكبير — لم يبتكر من النظرية المشهورة عنه غير هذا اللفظ كما يرى القارىء ، و « لا جديد تحت الشمس »

وضحية ؛ هذا المخلوق لا يمكن أن يحبه الناس ولا ترضى الآلهة عنه ، بل لا تمكن معاشرته ، فلا يذوق لذة الصداقة ، فهو شقى للغاية ؛ والدولة التى يحكمها أشقى الدول .

حـ — فلا تقل : إن السعادة تقوم فى الشهوة القوية وفى اللذة بالاطلاق ، ولكن قل : إن من اللذات والآلام ما هو حسن وما هو ردىء ؛ وإن الانسان أسعد فى النظام منه فى الاسراف ، ولو اتبعنا حساب أصحاب اللذة — بشرط أن نجيد وضع القواعد ونضبط الحساب — لوجدنا أن الحياة الفاضلة هى أيضاً ألذ حياة ، أما القواعد فهى أننا نطلب اللذة ونهرب من الألم ، وأننا لا نرغب فى حال بين بين ، ولكننا نؤثرها على الألم — وأننا نختار ألماً يعود علينا بزيادة من اللذة ، ونرفض لذة ينجم عنها زيادة من الألم ؛ ولا نكترث للذة وألم متعادلين ؛ وأما الحساب فتدخل فيه عدد اللذات والآلام ومدة كل منها وقوته — ونحن نطلب حياة ترجح فيها كفة اللذة بعد اعتبار الشروط المتقدمة ، لاحياة ترجح فيها كفة الألم ، فان هذه مرفوضة نؤثر عليها حياة تتعادل فيها الكفتان ؛ فاذا نظرنا إلى الفضائل وأضدادها من هذه الوجهة ، وضاهينا بين حياة العفة والحكمة والشجاعة من ناحية ، وبين حياة الشره والحمق والجبن من ناحية أخرى ، رأينا الطائفة الأولى تمتاز بخفة الانفعال ، وضعف اللذة والألم ، ولكن اللذة فيها أغلب وأدوم من الألم ؛ فى حين أن الألم أغلب وأدوم فى الطائفة الثانية (١) ؛ فالكفة راجحة فى الفضيلة إلى جهة اللذة ، وفى الرذيلة إلى جهة الألم ، والقائلون باللذة لا يقدرون مرمى قولهم ، ولا يدرون ما يريدون ، يطلبون السعادة وفق الطبيعة ، فتتكشف يوم الطبيعة شر تكشيف ، وتؤيد القانون الذى يسخرون منه .

وما ذلك إلا لأن القانون مستخرج من الطبيعة مفهومة على حقيقتها ، وهى تضطر الناظر فى السيرة الانسانية أن يعدل عن اللذة إلى المنفعة ، وأن يحكم على الأولى بالثانية ، فيقر أن من اللذات ما هو حسن ، أى نافع ؛ وما هو ردىء ، أى ضار ، وأن من الآلام ما هو حسن نافع ، كتعاطى الدواء ، وتحمل العلاج ؛ وما هو ردىء ضار ؛ وأن اللذات والآلام الحسنة هى التى تطلب ، واللذات والآلام الرديئة هى التى تتقى ، وأن النافع ما يجلب الخير ، والضار ما يجلب الشر ؛ والمنفعة التى توسم بالخير هى التى تكمل الشىء وفق حقيقة هذا الشىء ، والضرر الذى يوسم بالشر هو الذى ينتقص الشىء ، أو يقضى عليه ، فإن كل شىء يقوم بالنظام والتناسب ، فإذا ما اختل النظام فقد الشىء قيمته و « فضيلته » ؛ وأن الذين نسميهم أخياراً وأشراراً يحسون اللذة والألم على السواء ، فليس الأخيار أخياراً باللذة ، بل بالخير ،

(١) هذا الحساب ذكره أفلاطون فى المقالة الخامسة من « القوانين » ، وسنورد له حساباً من نوع آخر ، فهو قد سبق أبيقور وبنتام والنفعيين أجمعين ، وزاد عليهم أن أقام عنده الحكمة التجريبية المتواضعة على أساسها العقلى ، فرفع النفس الى مستوى الفضيلة كما سيأتى .

وليس الأشرار أشراراً بالألم ، بل بالشر ؛ وكما أن الكيفية التي تحدث في الجسم عن النظام والتناسب تدعى الصحة والقوة ، فإن النظام والتناسب في النفس يسميان القانون والفضيلة

٢ : الفضيلة

ا — الفضائل ثلاث تدبر قوى النفس الثلاث : الحكمة فضيلة العقل تكمله بالعلم والحق ، والعفة فضيلة القوة الشهوانية تلطف الأهواء فتترك النفس هادئة والعقل حراً ، ويتوسط هذين الطرفين الشجاعة ، وهي فضيلة القوة الغضبية تساعد العقل على الشهوانية ؛ فتقاوم إغراء اللذة وخوف الألم ـ والحكمة أولى الفضائل ومبدؤها جميعاً ، فلولا الحكمة لجرت الشهوانية على سليقتها وانقادت لها الغضبية ، ولو لم تكن العفة والشجاعة شرطين للحكمة تمهدان لها السبيل وتتشرفان بخدمتها ما خرجتا عن دائرة المنفعة الى دائرة الفضيلة ؛ إذ ه ما الهرب من لذة لنيل لذة أعظم سوى عفة مصدرها الشره ، وما خوض الخطر لاجتناب خطر آخر سوى شجاعة مصدرها الخوف ، ليست الفضيلة هذه الحسبة النفسية التي تستبدل لذات بلذات وأحزاناً بأحزان ومخاوف بمخاوف ، كما تستبدل قطعة من النقد بأخرى ، فإن النقد الجيد الوحيد الذي يجب أن نستبدل به سائر الأشياء هو الحكمة ، بها نشترى كل شيء ونحصل على كل الفضائل ؛ أما الفضيلة الخالية من الحكمة والناشئة عن التوفيق بين الشهوات فهي فضيلة الرقيق »[1] ، فالفضيلة إذن من جنس العقل والنفس ، ولا يسوغ أن نذكرها إلا بالاضافة إليهما ؛ والحياة الفاضلة لا تستمد قيمتها من لذتها أو منفعتها ، بل من هذه الاضافة ، ويمتنع على من ينكر النفس والعقل أن يبلغ إلى معنى الفضيلة .

ب — وإذا ماحصلت هذه الفضائل الثلاث للنفس ؛ فخضعت الشهوانية للغضبية ، والغضبية للعقل ، تحقق في النفس النظام والتناسب ، ويسمى أفلاطون حالة التناسب هذه بالعدالة ، باعتبار أن العدالة بوجه عام إعطاء كل شيء حقه ؛ فليست العدالة عنده فضيلة خاصة ، ولكنها حال الصلاح والبر الناشئة عن اجتماع الحكمة والشجاعة والعفة .

وأما العدالة الاجتماعية ، فهي تحقيق مثل هذا النظام في المجتمع ، فإن الرجل الصالح في نفسه صالح بالضرورة في علاقاته مع الناس ، والعكس بالعكس ، وتستتبع العدالة الاحسان تاماً شاملا ، فلا تحدها بأنها الاحسان إلى الأصدقاء والاساءة إلى الأعداء ، لأن الاساءة إساءة للنفس أولا ؛ فالذي يقابل الشر بالشر يفقد عدالته ، ويزيد الشرير شراً ، فتنتج

(١) عن محاورة « فيدون » ص ٦٨ .

العدالة عكسها من الناحيتين ، وهذا محال ؛ أتسمع إلى سقراط يتحدى السوفسطائيين ويقلب آيتهم رأساً على عقب حيث يقول : « أنا لا أشتهي ارتكاب الظلم ولا تحمله ؛ ولكن إذا وجب الاختيار فأنا أختار الثاني » ، « وأنا أنكر أن يكون منتهى العار أن أصفع ظلماً ، أو أن تقطع أعضائي ، أو أن أسلب مالي ، وأدعي أن العار يلحق المعتدي ، وأن الظلم أقبح وأكثر خسراناً لصانعه منه لضحيته [1] » .

وتستتبع العدالة السعادة مهما يكن من حال الجسم وشئون هذه الدنيا ، لأن العدالة خير النفس ، والنفس أسمى وأبهى وأبقى من الماديات جميعاً ؛ فقد تنزل بالعادل المصائب ، « ويجلد ويعذب ويوثق بالأغلال وتكوى عيناه ويعلق على صليب » ، وهو سعيد بعدالته مغتبط بها ؛ أما الطاغية الذي ينكل بالناس ، وأما السياسي الذي يوقع بخصومه ، فكلاهما شقي حقيق بالرثاء ؛ لأن الظلم أعظم الشرور ، وليست المسألة بيننا وبين السوفسطائيين : هل الظالم منتصر دائماً أم غير منتصر ؟ ولكن هل هو سعيد أم شقي ؟ وقد أوردنا لها حلا : أولا لما خاطبناهم بلغتهم وجادلناهم من وجهتهم ؛ فبينا أنه تعس معذب في جسمه وشعوره . والآن وقد عرفنا النفس والفضيلة ، نستطيع أن نسلم لهم جدلا بأنه موفق هانيء في ظلمه ، ونؤكد مع ذلك أنه شقي غاية الشقاء ، لأنه ظالم ، وأن العادل سعيد لأنه عادل ، بل نتحداهم مرة أخرى ونزيد على هذا القول ، أن الظالم أشقى إن لم يكفر عن آثامه ، ومعنى التكفير تحمل القصاص العادل ، وكل ما هو عادل فهو جميل ، وتحمل القصاص جميل وخير يستقيم به النظام وتخلص النفس من شرها وهو أعظم الشرور لأنه شر النفس ؛ وكما أن علاج الطبيب مفيد — ولو لم يكن مستحباً — وأن السعادة الكبرى للجسم أن لا يمرض أبداً — ويليها أن يشفيه الأطباء إذا مرض ، فإن أسعد الناس البريء من الشر ، ويليه الذي يشفى من شره ؛ أما الذي يحتفظ بشره ، فأشقى الناس جميعاً ، لا يدري أن مصاحبة الجسم المريض لا تعد شيئاً مذكوراً بالقياس إلى مصاحبة النفس المريضة ، أي الفاسدة الظالمة المطلقة ؛ وكما أن المريض يسعى إلى الطبيب ويتحمل الكي والشق ، يجب على الخاطيء أن يسعى إلى القاضي بنفسه فيعترف بخطيئته ولا يكتمها في صدره ، ويطلب العقاب ولا يتهرب منه ، فإن استحق الجلد قدم جسمه للسوط ، أو الغرامة أداها ، أو النفي رحل عن وطنه ، أو الموت تجرعه ، فإن التكفير أعظم الخيرات بعد البر » [2] .

ح — « هذه حقائق قائمة على أدلة من حديد وماس » ، من يعضها بأدلتها ومراميها يأت الخير حتماً ، من حيث إن الإنسان يطلب الخير بالضرورة ، ويمتنع أن يؤثر الشر مع علمه بالخير

(١) محاورة غورجياس ص ٤٦٩ ، و ٥٠٨

(٢) غورجياس ص ٤٧٦ ، وما بعدها .

علماً صحيحاً ، أما الذى يعلم الخير ويأتى الشر فعلمه ناقص وحقيقته : أنه « رأى » قلق عار عن الأصول والنتائج، لا يقوى على إغراء اللذة ؛ فالفضيلة علم ، والفاضل هو الحاصل على العلم بالخير يعرف مايفعل فى كل حال ، لأن نظره موجه دائماً إلى الخير المطلق ، والفاضل دليل يجب الاسترشاد بفكره كما يسترشد بالفنارى لتعلم العزف على القيثارة ، أما الرذيلة فجهل بالخير الحقيقى واغترار بالخير الزائف » .

هذا القول ـ إن الفضيلة علم والرذيلة جهل ـ المأثور عن سقراط والمنبث فى كتابات أفلاطون، قد توهم البعض أن فيه إنكاراً للحرية؛ وليس هذا بصحيح: فان الحكيم يفعل الفضيلة حتماً من حيث إنه يرى فيها خيره، لا من حيث إنه مضطر اضطراراً طبيعياً، فهو يفعل الفضيلة مع قدرته على فعل الرذيلة ، ولكنه لا يفعل هذه لأنها فى نظره نقص وشر ، ولا يراد الشر من حيث هو كذلك . أضف إلى هذ أن هذه المرتبة العليا التى يتحدفيها العقل والارادة؛ لا تتفق للحكيم عفواً ، ولكنه يبلغ إليها بمجاهدة النفس أى بالحرية ، وأن الحرية ليست العبث؛ بل القدرة على الفعل، والترك بمقتضى العقل؛ وما هذا العلم الملزم سوى الواجب فى تعبير العصر الحديث، تأدى اليه أفلاطون « بأدلة من حديد وماس » .

ونحن لا نرى أية قيمة لادعاء من يدعى أن فلاسفة اليونان لم يعرفوا فكرة الواجب بحجة أنهم كانوا يطلبون السعادة ، وأن لا معنى لأمر الناس أن يعملوا ما فيه سعادتهم [1] ـ فان فكرة الواجب تلزم من إدراكنا اشتراك الخير بين المحسوس والمعقول، وإن سعادة الانسان خيره من حيث هو إنسان ، لا من حيث هو حيوان . وإن النظام « يقضى » بإيثار الخير المعقول . وإنما نشأت هذه الدعوى من فهم الواجب على أنه فكرة دينية صرفة ؛ وأنه أمر عال صادر بالوحى عن عزيز مقتدر « وعقد بين الله والناس » ؛ أن يعملوا كذا فيصيبوا كذا ـ وهذا وهم كبير يحط من كرامة الله ومن كرامة الانسان ، إذ يصور الواجب شريعة وضعية بحتة يخضع لها الانسان دون أن يدرك لها حكمة ، أما أفلاطون فقد جعله أولا شريعة طبيعية خارجة من نفس الانسان مصورة فى عقله . فكان المنفعة الحقة كما تبينت ، والحكمة كما وصفت ، ثم أيده بأن مد فى الحياة إلى عالم آخر ، تتحقق فيه العدالة تامة ، ليسبغ على الحياة الانسانية معناها الكامل ، فهو قد فعل خيراً من وضع الواجب قانوناً قاهراً ؛ فقال : إنه النظام ، والنظام حق وجمال تسمى إليه النفس مشتاقة .

يوسف كرم

---

[1] Brohard. Études de phil ancienne et mod.